# تقـــديـم

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وبعد ، فهذه دراسة موجزة للفترة الهامة أو الرئيسية لتاريخ المسلمين ــ أو الإسلام فى البحر المتوسط ، وقد جمعت فيها ــ بجهد كبير ــ كل ما استطعت جمعه من أخبار نشاط المسلمين فى ذلك البحر ، ووقفت فيها عند الحروب الصليبية ؛ لأن الكتابة فى النشاط البحرى للمسلمين فى البحر المتوسط أثناء الحروب الصليبية تتطلب كتابا خاصا يتناول أولا ــ الحروب الصليبية نفسها ، وهذا لا يتسع له كتابنا هذا ، ومع ذلك فإن فيه من أخبار المسلمين البحرية شيئا كثيرا جدا ، وهو أكثر مما يتوقع الإنسان أن يجده فى كتاب صغير بهذا الحجم .

وعندما انتقل مركز الدولة الإسلامية من المدينة المنورة إلى دمشق فى بلاد الشام على يد معاوية بن أبى سفيان تحولت الدولة الإسلامية إلى دولة متوسطية ؛ فقد كانت تملك إلى جانب الشام بلاد مصر والمغرب إلى أفريقية ، وهى بلاد تونس الحالية ، والأمويون هم الذين أتموا فتح المغرب وفتحوا الأندلس ، أى أنهم حولوا البحر المتوسط إلى بحيرة إسلامية فعلا .

والواقع أنه ابتداء من العصر الأموى فى سنة ٤٠ هـ/٦٦١م أخذ البحر المتوسط يتحول إلى بحيرة إسلامية عن طريق سلسلة من الحملات البحرية الإسلامية وصاحَبَ هذه العمليات العسكرية البحرية والفتوح نشاط اقتصادى واجتماعى إسلامى فى كافة بلاد البحر المتوسط ، ففى خلال العصر الأموى وإلى جانب ما قام به المسلمون من فتوح فى ذلك البحر ــ أنشأ

المسلمون الأساطيل ودور الصناعة لبناء السفن الحربية والتجارية بشتى أصنافها وأحجامها . وخلال العصر الأموى تحولت موانى الشام ومصر وأفريقية إلى قواعد بحرية للأساطيل الإسلامية القائمة ، وأصبحت موانى عكا وصور ويافا وبيروت وطرابلس واللاذقية ودمياط والإسكندرية ورشيد وطرابلس الغرب وبقية موانى المغرب إلى المحيط الأطلسى موانى إسلامية . ثم فتح المسلمون الأندلس فيما بين سنتى ٩٢ و ٩٧ هـ/٧١١ و٧١٥ ميلادية ودخلت كل شواطىء شبه الجزيرة الأندلسية فى الإسلام ، ويضاف إلى ذلك شواطىء سبتمانية ، وهى الرفييرا الفرنسية وجزء كبير من الرفييرا الإيطالية ، هذا بالإضافة إلى سيطرة المسلمين على جزء ضخم من الشواطىء الشرقية للأندلس وما فتحه المسلمون من بلاد المغرب ، وامتدت الشواطىء الإسلامية على المحيط الاطلسى من مصب نهر المينو فى شمال غرب اسبانيا إلى وادى ورعة جنوبى المغرب الأقصى .

وقد فتح معاوية بن أبى سفيان جزيرة قبرص سنة ٢٨ هـ/٣٣٨م . ثم ارتد أهلها وكاتبوا الروم ، فعاد معاوية إلى غزو قبرص سنة ٣٣ هـ/٦٥٣م . وأسكنها المسلمين وترك فيها حامية إسلامية عسكرية ، فأصبحت صقلية بذلك أول جزيرة إسلامية فى البحر المتوسط . وفيما بين سنتى ٥٤ و ٦١ هـ/٦٧٤ و ٦٨١ أتم معاوية إخضاع جزيرتى ارواد ورودس ، وبهذا تمت سيادة المسلمين على مياه الحوض الشرقى للبحر المتوسط ، وذلك بفضل القائد البحرى لمعاوية بن أبى سفيان وهو جنادة بن أبى أمية الأزدى ، وقد اتخذ ارواد قاعدة لأعماله البحرية وأنشأ فيها دار صناعة بحرية .

وبعد تمهيد طويل بواسطة حملات برية على آسية الصغرى وصل بعضها إلى قرب القسطنطينية ، ومحاولات أخرى بحرية من القواعد الإسلامية البحرية على سواحل الشام ومصر أحس العرب أنهم وصلوا إلى درجة من الخبرة بالطريق إلى القسطنطينية برا وبحرا ، وأنهم يستطيعون غزو القسطنطينية والاستيلاء عليها والقضاء على دولة الروم ، ولكنهم مع الأسف

الشديد لم يستطيعوا ذلك ؛ لأن الدولة البيزنطية كانت أقوى بكثير مما تصوروا . فقد كانت تعتمد على مدد قوى من الجنود من كافة بلاد آسية الصغرى والبلقان ، ثم إن جنودها البحريين كانوا على درجة كبيرة من التدريب البحرى ؛ لأن حروب البحر تحتاج إلى تدريب طويل فى الفنون البحرية وقيادة السفن وحرب البحار ، ولم يقصر العرب فى الجهد فى فتح القسطنطينية ، ولكن كانت تنقصهم الخبرة اللازمة فى قيادة حرب البحار . وقد بذل سفيان بن عوف القائد البحرى المسلم لمعاوية مجهودا ضخما فى محاولة الاستيلاء على القسطنطينية ، ثم بعث إليه معاوية مددا بقيادة ابنه يزيد ومعه نفر من أبناء الصحابة من بينهم أبو أيوب خالد الأنصارى . وقد اشتبك المسلمون مع الروم فى القتال تحت أسوار القسطنطينية واستبسلوا فى القتال ، ولكنهم لم يستطيعوا اقتحام أسوار القسطنطينية ، وقد استشهد منهم فى تلك المعارك نفر من كبار الصحابة منهم أبو أيوب خالد الأنصارى الذى دفن بقرب بروسة ، وأقيم على ضريحه فيما بعد مسجد أبى أيوب المشهور الذى أصبح أيام العثمانيين من أكبر المزارات العثمانية ، بل كان السلاطين العثمانيون يتوجون فيه تبركا بالصحابى أبى أيوب .

وقد تأخر فتح المسلمين للقسطنطينية وإزالة دولة الروم إلى أيام الفتح العثمانى عندما استولى عليها محمد الفاتح سنة ١٤٥٣م . أى أنها عاشت فى صراع مع المسلمين نحو عشرة قرون ، وقد استطاعت خلال هذه الفترة الطويلة أن تتم رسالتها فى البحر المتوسط فصبغت البلقان بالصبغة الصقلية مع تشديدها مسيحيته . وأدخلت الصقالبة جميعا ــ بما فيهم الروس ــ فى المسيحية ، ولولا هذه الدولة لتحول الروس إلى الإسلام ، ويستطيع القارىء أن يتصور كيف كانت الصورة التاريخية للعالم تكون إذا كان المسلمون قد استطاعوا كسب الروس إلى الإسلام . وقد فصلت هذه الحقيقة فى هذا الكتاب . وهذا لا يمنعنا أن نشير هنا إلى الجهد العظيم الذى بذله الفاتح والأمير الأندلسى مسلمة بن عبدالملك . وقد كان مسلمة قد قرر

فتح القسطنطينية بجيش ضخم أعطاه أياه أخوه الخليفة الأموى سليمان بن عبدالملك ، ولكنه تعرض لخدعة أدارها عليه رجل يسمى ليو الأرمنى كان طامعا فى العرش البيزنطى ، فاتفق مع مسلمة على أنه يعينه على ما يريد إذا أمده بقوة ومال وسلاح ليدخل القسطنطينية ويعزل الإمبراطور ثيودوسيوس الثالث ثم يفتح للمسلمين البلد ، حتى إذا دخل القسطنطينية عزل الإمبراطور وتولى هو العرش باسم ليو الثالث الإيسورى ، وانقلب على المسلمين وانضم إلى إخوانه الروم فى حرب المسلمين واجتهد فى تحصين البلد ، وحاصرها المسلمون بالبر والبحر ، ولكنهم لم يستطيعوا دخولها ، وأقبل الشتاء ، واستمر مسلمة ملازما للحصار فى إصرار ، وهبت عواصف حطمت جانبا كبيرا من أسطول المسلمين ، ثم مات الخليفة سليمان ، وعاد الروم إلى استعمال النار اليونانية ، ودخل صيف سنة ٩٩ هـ . واستمر الحصار ، وجاء إلى الخلافة عمر بن عبدالعزيز ، فكتب إلى مسلمة بن عبدالملك بالعودة ، وبذلك فشلت أكبر محاولة قام بها المسلمون للقضاء على دولة الروم . وبعد أيام الأمويين لم يقم المسلمون بأية محاولة لغزو القسطنطينية ، وعاشت دولة الروم لتتم رسالتها كما قلنا ، فلما جاء الأتراك العثمانيون واستولوا عليها كان شرق أوروبا كله قد تحول إلى بلاد نصرانية معادية للمسلمين .

ولكن المسلمين استطاعوا ــ رغم عدم استيلائهم على القسطنطينية ــ أن يغمروا البحر الأبيض بنشاطهم من سواحل الشام ومصر والمغرب والأندلس ، وقد بين ذلك بوضوح المؤرخ الفرنسى المشهور شارل ديل فى كتابه المسمى «محن وشرلمان» وقد عرضت هذا الكتاب الهام فى هذا الكتاب عرضا مفصلا .

وعندما انتقلت الخلافة الإسلامية إلى بغداد فقدت هذا الطابع البحرى وأصبحت دولة قارية . وقد خسر المسلمون بذلك خسارة كبيرة فيما يتصل بنشاطهم فى البحر المتوسط . والدولة العباسية لم تحاول مرة واحدة القضاء

على دولة الروم أو حتى الاستيلاء على جزء كبير منها فى آسيا الصغرى ، ولكنها على أى حال اهتمت اهتماما كبيرا بالمحافظة على الشام ومصر والمغرب إلى أقصى حدود أفريقية غربا ، وقد بذلت فى ذلك جهدا كبيرا ، ولكنها لم تحاول الاحتفاظ من المغرب إلا بهذا القدر . أما بقية المغرب : المغرب الأوسط فقد قامت فيه دول مستقلة شتى مثل دولة الأغالبة ثم الفاطميين ، أما شرق المغرب الأوسط فقد كانت فيه دول إسلامية مستقلة أخرى قاعدتها تلمسان ، وأما المغرب الأقصى فقد قامت فيه دولة الأدارسة وخلفتها دول أخرى فى حين أن الأندلس أصبح ابتداء من ٧٥٨م مركزا للدولة الأموية الأندلسية .

وهذه الدول كلها قامت بنشاط عظيم فى حوض البحر المتوسط وإن لم يتحد بعضها مع بعض ، ولكنها تمكنت على أى حال من المحافظة على عروبة البحر المتوسط والثبات لدول الغرب التى حاولت دائما أن تنتزع السيادة عليه من أيدى المسلمين .

وتاريخ هذا الصراع هو الذى أقصه فى هذا الكتاب مختصرا على أى حال ، ولكنه صراع فريد فى بابه ، لأن المسلمين أثبتوا فيه أنه مهما كانت ظروفهم سيئة فقد استطاعوا الاحتفاظ بعروبة البحر المتوسط طوال العصور الوسطى . وقد أُلِّفتْ فى هذا الموضوع كتب كثيرة تجد بيان معظمها فى البيكيوغرافيات التى أضفتها إلى هذا الكتاب الذى أعتقد أن موضوعه من أهم موضوعات تاريخ الإسلام وأولاها بالعناية . وقد خصصت لتاريخ المسلمين فى البحر المتوسط فصلا كاملا من فصول أطلس الإسلام ، ورسمت خرائط كثيرة يستطيع الاستفادة منها من يريد أن يتوسع فى دراسة تاريخ المسلمين فى البحر المتوسط .

وقد طبع هذا الكتاب أكثر من مرة ، وفى كل مرة أدخل عليه تعديلا وأزيد عليه زيادات ، واهتممت بهذه الطبعة التى أقدمها للقارىء بهذه السطور اهتماما خاصا ، فأرجو أن تزداد به فائدة القراء .

والله أسأل أن يزيد الفائدة منه ، وأنصح القارىء عند قراءته أن يستعين بما كتبته عن هذا الموضوع وما قدمته من الخرائط عنه فى أطلس الإسلام .

القاهرة فى سبتمبر ١٩٩٠ المؤلف .